



البحث التدخلي: منطلقات تأسيسية وأفاق جديدة

د: عبدالله شكرية¹

الملخص

نحاول في هذه الورقة مقارنة موضوع البحث التدخلي من خلال التركيز على منطلقات تأسيسية نعتبرها مبادئ مهمة في بناء بحث علمي تدخلي رصين، هذه المنطلقات تستمد مشروعيتها من واقع التجربة العلمية المغربية وخصوصياتها المعرفية وبيئتها الفكرية، كما نقف مع مؤشرات علمية لبناء بحث تدخلي علمي مفيد، هذه المؤشرات تخضع لضوابط المؤسسات العلمية الدولية. و"لأن البحث التدخلي هو جزء من البحث العلمي العام فإنه لابد من مناقشة مداخل إصلاح البحث العلمي قصد توفير بيئة إجرائية لممارسة البحث العلمي عموما والتدخلي خصوصا".

وإجرائيا فإن مقالنا يناقش المحاور التالية:

المحور الأول: مدخل تعريفي.

المحور الثاني: منطلقات تأسيسية.

المحور الثالث: آفاق جديدة.

المحور الرابع: مداخل الإصلاح.

كلمات مفتاحية: الملاحظة العلمية، المدرس المتبصر، البحث العلمي

¹الأكاديمية الجهوية الرباط سلا القنيطرة/ المغرب، رئيس مركز ابن النفيس للدراسات والأبحاث chkiriba84@gmail.com

Interventional Research: Foundational Principles and New Horizons

Dr. ABDELLAH CHKIRIBA

Abstract

In this paper, we explore the topic of interventional research by focusing on foundational principles that we consider essential for building a solid framework. These principles draw their legitimacy from the reality of Morocco's scientific experience, its cognitive particularities, and its intellectual environment. Additionally, we provide scientific indicators for constructing effective interventional research, which are aligned with international scientific standards.

Since interventional research is a subset of general scientific research, it is important to address the reforms necessary to create a conducive environment for conducting both general and interventional research.

Our article will address the following key areas:

Axis One: Definitional Approach

Axis Two: Foundational Principles

Axis Three: New Horizons

Axis Four: Reform Approaches

Keys words: interventional research. Foundational principles. New horizons

مقدمة

يسعى مقالنا هذا إلى دراسة البحث العلمي التدخلي، دراسة علمية تقدم تصورات نظرية قصد بناء معرفة علمية بيداغوجية قائمة على أسس متينة تساهم في النقاش التربوي .

ننتقل في دراستنا هذه من فرضية عامة مفادها أن البحث العلمي عموما والتربوي خصوصا هو البنية الأساسية لهضبة تعلمينا وتطوير الفريق التربوي وهيئة التدريس بالمدرسة المغربية.

إن البحث التدخلي له قيمة اعتبارية مهمة، ليس في مردوديته العلمية فقط، وإنما في بنائه لمدرس المستقبل، بناء يعينه على القيام بمهامه التربوية والتأطيرية والتعليمية. وقيمة كهذه جديرة بالاهتمام والدراسة والتقويم الدائم والتحديث المستمر.

لا يفصل مقالنا بين البحث العلمي العام والبحث التدخلي؛ ذلك أن هذا الأخير يستمد مقوماته ووسائله وطرقه البحثية ومناهجه التدخلية من البحث العلمي العام، ولذلك فإن التصورات والاقتراحات التي نقدمها في صورة البحث العلمي قابلة للتعميم على البحث التدخلي.

تتميز دراستنا هذه بطابعها الاجرائي وقوتها الاقتراحية، حيث تقدم مجموعة من المقترحات العملية والقابلة للتنزيل، لتطوير العملية التعليمية التعلمية؛ من خلال استنطاق ودراسة الوثائق التربوية الرسمية؛ كالرؤية الاستراتيجية 2015_ 2030 والميثاق الوطني للتربية والتعليم، وتقارير المجلس الأعلى للتربية والتعليم...الخ.

نقدم في مقالنا هذا مداخل تصورية نعتبرها مفاتيح مهمة لممارسة البحث العلمي، ممارسة تعود بالتغذية الراجعة؛ وسمناها بـ "منطلقات تأسيسية" هي:

الخروج من التقليد إلى الإبداع.

الانتقال من تلقين المعرفة الى إنتاجها.

تعزيز الثقة في الكفاءات الوطنية.

الانطلاق من الخصوصية المحلية.

إن الاهتمام بالبحث التدخلي يعني الاهتمام بالمراكز الجهوية لمهن التدريس التي هي الفضاء الأنسب لممارسة البحث التدخلي؛ ممارسة هادفة ومنتجة، ولذلك فإن تأهيل المراكز الجهوية وهيكلتها فرقا البحثية هي من الخطوات التدبيرية المهمة التي نتناولها بالدرس و الاقتراح؛ فالبحوث التدخلية في المراكز لا بد لها من رؤية تصورية واضحة تخدم المدرس من جهة وتقدم مردودية علمية من جهة ثانية.

المحور الأول: مدخل تعريفي

البحث العلمي عملية تهدف إلى إنتاج المعرفة وبلوغ الحقيقة عبر مجموعة من الوسائل المتعارف عليها أكاديميا كالملاحظة والتجربة والتفكيك والتنظيم، والتخطيط والتحليل والتفسير... الخ.

يرتكز البحث العلمي على الطبيعة البشرية الميالة إلى الفضول المعرفي؛ لأن "نفوسنا البشرية مجبولة على الفضول، والتي دائما ما تحركها تلك العاطفة المتعطشة أبداً إلى المعرفة، ودائماً ما تلازمها تلك الرغبة الملحة في التحسين من نفسها ومن الآخرين.

إنها طبيعتنا، طبيعتنا التي ستظل مُتيممة بكل ما هو جديد ومبتكر مدى الحياة. يمدّها كل من التفكير، والسعي نحو التجديد، والتعطش المستمر لفهم وإدراك كل ما يحيط بنا، بالوقود اللازم لإكمال مسيرتها في سبيل البحث والمعرفة، وهنا تحديداً يكمن جوهر البحث العلمي"¹.

البحث العلمي نشاط إنساني لا يعرف الثبات أو الجمود، وهو ما يشجع على الاكتشاف الذاتي وحل المشكلات. أي أن العلم سلسلة من التطورات الذهنية المترابطة أو المتواصلة الناتجة عن عملية الملاحظة والتجريب، وظيفته الأساسية التوصل إلى تعميمات بصورة قوانين، أو نظريات تنبثق عنها أهداف فرعية، تتلخص في وصف الظواهر وتفسيرها، وضبط المتغيرات، للتوصل إلى علاقات محددة بينها، ثم التنبؤ بالظواهر والأحداث بدرجة مقبولة من الدقة"².

يمكن أن نقسم البحث العلمي إلى مجالات متعددة، تعدد الحقول المعرفية وتنوعها؛ وهكذا يمكن الحديث عن البحث التربوي، والبحث اللغوي، والبحث في العلوم الدقيقة. من هذا المنطلق نعتبر البحث التدخلي هو بحث علمي يتأسس على قواعد البحث العلمي المتعارف عليها، ولكنه من حيث الموضوع يهتم بمعالجة مشاكل الصف المدرسي، إنه عملية تهدف إلى تقويم الممارسة الصفية وغربلتها بتقوية الممارسات المرغوبة وتحبيد الممارسات المرفوضة.

¹ أساسيات البحث العلمي، تنسيق ومراجعة فهد محمد وآخرون. مؤسسة علماء مصر، 2017 ص: 21

² كمال دشلي (2016-1437)، منهجية البحث العلمي، منشورات جامعة حماة كلية الاقتصاد، ص: 20

يسعى البحث التدخلي إلى مساعدة المدرس على توجيه قراراته وتدخلاته وتقويمها، بحيث يوجهه إلى مكان الخلل وطرق علاجها، ومكان القوة وسبل تقويتها.

إنه نشاط موجه لدراسة سلوك المتعلم وفهمه فهما متكاملان؛ دراسة تستحضر المجالات المتحركة في إنتاج سلوك المتعلم من الناحية النفسية والاجتماعية والتربوية والعمرية؛ إنه باختصار نشاط يستحضر بيئة المتعلم ومحيطه.

المحور الثاني: منطلقات تأسيسية لممارسة البحث التدخلي

نرى أن البحث العلمي لكي يتخذ مسارا علميا دقيقا وصحيحا ينبغي أن يتقيد بالمنطلقات التالية:

• الانتقال من التقليد إلى الإبداع:

نعتبر هذا المنطلق ركيزة أساسية يقوم عليها البحث العلمي، فليس من غرض البحث العلمي الاجترار والتكرار وإعادة أفكار غيرنا لمجرد الإعادة والاطلاع دون تمحيص أو تدقيق يفضي إلى الاستفادة منها؛ لذلك نتساءل: ما هو التقليد؟ وما هو الإبداع؟ هل الإبداع هو كل شيء جديد لم يسبقه الآخر؟ هل كل إبداع مفيد؟ ألا يفيد التقليد في تطوير البحث العلمي باعتبار أن المعرفة تراكمية، والإنسان يبدأ مقلدا ثم قد ينتهي مبدعا؟ هل ينمي التقليد معرفتنا؟ هذه جملة من الأسئلة التي توظف دارستنا لهذا المنطلق المهم.

التقليد هو إعادة واستنساخ وتكرار تجارب وأفكار الآخرين؛ استنساخا تاما كاملا دون تدقيق ولا غريبة. التقليد بهذا المعنى لا يفضي إلى معرفة بناءة، لأنه يسقط في تجريب نظريات غيرنا في بيئة مغايرة لها، ومن تجلياته الوقوع في اجترار وتكرار المواضيع نفسها مع تغيير المتون فقط، فتكون النتائج متطابقة ولا تختلف إلا في طبيعة المتن المختار للتطبيق. صحيح أن المعرفة تراكمية، والتجربة العلمية عابرة للحدود، والتقليد قد يفضي إلى الإبداع، ولكن التقليد الذي نحذر منه هو ذلك التقليد الأعمى الذي يكتفي بنقل تجارب الآخرين دون نقد أو بصيرة نافذة.

الإبداع هو القدرة على تقديم أفكار جديدة أو الإخراج الجديد لأفكار قديمة، فهل كل جديد إبداع؟ طبعا لا؛ فالإبداع يقترن بالجدة والجدية والغائية والمردودية، وهي صفات نعتبرها من مقومات العمل الإبداعي، ذلك أن الإبداع سلوك اجتماعي حياتي، يعطي للحياة استمرارية في العطاء وتطور في الأداء.

إن كل إبداع لا يحترم هذه الصفات، أو نقصت إحداها فقد نقصت قيمته الإبداعية، وكلما تحققت بشكل كامل كلما ارتفعت قيمته الإبداعية، فالجدة أساس الإبداع، والجدية قوامه، والغائية والمردودية شكله وسقفه.

إن التقليد الذي يبني أساس الإنسان وكفاياته المعرفية والمجتمعية لا يشكل عائقا أما المبدع في تفجير طاقته الإبداعية وقدراته الابتكارية، ذلك أن الإنسان لا يبدأ من العدم؛ فالتقليد لا يوقف مهارة المبدع ولا ابتكاراته، وإنما يكون اللبنة الأولى التي يضعها في بناء إبداعه. التقليد بهذا المعنى يقوي العملية الإبداعية ويغذيها، فالتراكم المعرفي الذي ينهل من مشارب الآخرين وتجاربهم يوسع المدارك ويفتح الآفاق شريطة أن يؤطر داخل نسق يحترم الإبداع ويشجع عليه.

• الانطلاق من الخصوصية المحلية: ونقصد بها الانطلاق من حاجياتنا وخصوصياتنا في المجال البحثي عليها نبني اختيارنا للمواضيع.

إن قافلة البحث العلمي ليست سواء عند جميع الدول؛ فهي متفاوتة ومتباينة كما وكيفا وتخصصا وعددا وعدة ومناهجا ووسائل مخبرية... الخ؛ ولذلك فإن تقويم وتشخيص حصيلة البحث العلمي في مجال معرفي ما عملية لها الأولوية، ذلك أن تشخيص واقع البحث العلمي ومنجزاته تشخيصا دقيقا لا يحابي أحدا كفيلا بوضع عجلة البحث العلمي في سكتها الصحيحة والمناسبة.

لا ترتبط الخصوصية المحلية بالبلد بحدود الوطن الواحد فقط، بل تتعداه إلى المحليات الجهوية؛ ولذلك يمكن الحديث عن محلية وطنية ومحليات جهوية. هذا التقسيم التجزيئي له ما يبرره، ذلك أن كل جهة لها خصوصية معينة تتفرد بها.

• الانتقال من تلقين المعرفة إلى إنتاجها: وذلك بتمثل المتعلم والطالب والباحث للمعرفة واكتسابها عن طريق الممارسة البحثية المبكرة.

إن الطريقة التقليدية في التعليم القائمة على التلقين والحفظ دون تحليل ونقد قد تكون ضعيفة المردودية العلمية، لذلك فإن العناية بالمتعلم وتمكينه من الطرق الحديثة والفعالة في امتلاك المعرفة وإنتاجها في سن مبكرة ستكون لا محالة مفيدة للعملية البحثية، ومنتجة للمعرفة التي تخلق الغبداع والابتكار.

• تعزيز الثقة في الكفاءات الوطنية: وهذا يعني التخلص من ترسبات الماضي واعتبار الآخر هو الذي يمتلك المعرفة وهو الأفضل دائما أو ما سماه ابن خلدون دين الانقياد أو نحلة الغالب.

لماذا تعزيز الثقة في الكفاءة الوطنية؟

- ✓ لأن المعرفة سلاح من الأسلحة المؤثرة في عصرنا الحالي، وامتلاكها يعني تحقيق تفوق مهم ومؤثر.
- ✓ تشجيع الكفاءة الوطنية على البحث والإبداع هو تشجيع مباشر على امتلاك المعرفة وتعميمها وتأمينها واستغلالها.
- ✓ الكفاءة الوطنية هي الأكثر معرفة بخصوصيات المجتمع العلمي البحثي وإمكانياته وحدوده العلمية.
- ✓ تشجيع الكفاءة الوطنية على البحث هو استثمار في الإنسان الذي يعتبر أغلى وأثمن استثمار في الكون.
- ✓ الاستثمار في الكفاءة الوطنية هو استثمار في التنمية المستدامة.
- ✓ الاستثمار في الكفاءة الوطنية هو تقليص للكلفة المادية للاستثمار في مختلف المجالات.
- ✓ الاستثمار في الكفاءة الوطنية يعزز قدرات البلد العلمية والاختراعية وينعش تنافسيته بين الأمم.

المحور الثالث: آفاق جديدة لبناء بحث تدخلي

هناك مجموعة من الامكانيات التي تتوفر عليها المغرب والتي تؤهله لإنتاج بحث علمي رصين منها.

- توفر المغرب على قاعدة طلابية مهمة بلغت في الموسم الحالي (2024/2023) مليون و300 ألف طالب وطالبة وهي في تزايد سنوي بحيث بلغت الزيادة هذه السنة 6.8 بالمقارنة مع الموسم السابق 94 منها بالقطب العمومي.
- توفر الجامعة المغربية على منصتي توبقال وأطروحتي الخاصة بالأطاريح التي نوقشت أو التي في طور التحضير.
- هذه المعطيات تظل فاقدة للمردودية والنجاعة ما لم يوازها إجراءات نوعية تعزز قيمة البحث العلمي منها:

أولا: توفير بيئة حاضنة للبحث العلمي من خلال توسيع:

- ✓ مراكز ومعاهد البحث الموضوعية وتعميمها على مختلف الجامعات (في هذا الموسم 2023/2024 تم إحداث 3 معاهد موضوعاتية للبحث في مجالات ذات أولوية كالماء والبيوتكنولوجيا والذكاء الاصطناعي).
- ✓ الإنفاق على البحث العلمي وفق المعايير الدولية (الإنفاق الجيد هو الذي يتراوح بين 1.6 و 2 % من الناتج الوطني الخام).
- ✓ إحداث مهنة الباحث عبر تفرغ الأساتذة الباحثين المكلفين بمهمة بحثية وفق جدول زمني معقول واعتماد مالي مشجع.

ثانيا: الخروج من البحوث التدخلية الوظيفية الى البحوث التدخلية المنتجة والمؤطرة ضمن مشروع بحثي قائم: والمقصود أن يتوفر المركز التكويني على مشروع بحثي واضح الأهداف ينخرط فيه الأساتذة المتدربون والباحثون والمكونون وفق عمل فريق منظم وممتد في الزمان والمكان تكون مهمة الأستاذ المتدرب فيه إنجاز جانب منه يركز فيه على الكيفية والمردودية ولا ينظر إلى الكم.

● لماذا التركيز على الكيفية؟ لأن الغرض من البحث هو نتيجته المرجوة منه، وليس هو غاية في حد ذاته مثل الجامعة، التي من مهام البحث في الإجازة أن يتدرب الطالب على عملية البحث ويتعرف على آلياته ومفاهيمه، وبالتالي عملية البحث تكوينية بالدرجة الأولى.

ثالثا: الخروج من الوظيفية الى الإنتاج يقتضي الانطلاق من الحاجيات البحثية الواقعية والاشكالات العلمية انطلاقا من الممارسة التربوية وفق تقييمات علمية دقيقة يقوم بها فريق علمي منسجم يمكن للوزارة أن تستفيد من الإطار الجديد للأساتذة الباحثين وتوظيفهم في هذا الأمر.

المحور الرابع: مداخل ملحّة لتطوير وتجويد البحث العلمي

المدخل الأول: ربط البحث العلمي بالتنمية:

ترتبط التنمية بالنماء والتطور وتجديد وسائل الحياة في مختلف مجالاتها المجتمعية؛ فهي العملية المرسومة سلفا لتقدم المجتمع اجتماعيا واقتصاديا¹، إنها منظومة متكاملة تسعى إلى تحقيق التحول الجذري من وضع غير مرغوب إلى وضع مناسب ومثالي؛ ولذلك فإن التنمية لا تقتصر بالوضع الاقتصادي فقط، وإنما ترتبط بمختلف مجالات الحياة. إنها نقطة جذب ومحور انتظام عجلة المجتمع، فكل مجال يغذي المجال الأم (المجتمع) ويتغذى منه وهكذا نجد مثلا أن "التنمية اللغوية هي الضمان الأساس للحماية الاجتماعية والسلم الاجتماعي، وهي الطريق السليم للتفرغ للفعل التنموي"².

إن البحث العلمي هو ذلك القاطرة الأمامية التي تقود مقصورات التنمية في مختلف مجالاتها المجتمعية؛ فالفلاحة والصناعة والتجارة ومختلف الخدمات تتطور وتنمو بالبحث العلمي، والواقع الميداني في هذه المجالات يؤكد هذا ويعززه، لذلك فإن ربط البحث العلمي عموما والبحث التدخلية خصوصا بالتنمية سيكون حتما نقلة نوعية وطفرة مهمة في العملية التربوية عموما.

¹ حسين هيتي (2015)، العلاقات وشبكات التواصل الاجتماعي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ص: 43

² عبدالرحمن بجوي، تنمية اللغة ولغة التنمية في الوطن العربي، المركز العربي للأبحاث وتحليل السياسات الدوحة، ص: 13

ولقد نصت الرافعة الرابعة عشر من الرؤية الاستراتيجية على أن البحث العلمي والتقني والابتكار "يحظى باهتمام متزايد، بالنظر الى مكانته الاستراتيجية والحيوية في تحقيق تطور البلاد، اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، وتعزيز مكانتها وقدرتها التنافسية على الصعيد العالمي"¹. لقد أكدت الرؤية الاستراتيجية أيضا على ضرورة اعتماد سياسة استشرافية تأخذ بعين الاعتبار ضرورة العناية برأس المال البشري في سياق منظومة تربوية تسعى إلى تحقيق أكبر عدد ممكن من المواطنين لهم تعليم عال يؤهلهم للبحث والإبداع والتجديد وتعزيز التكامل بين مجالات البحث بينما هو نظري وما هو تطبيقي وميداني، وبين ما هو علوم دقيقة وتقنية وتطبيقية وما هو علوم إنسانية واجتماعية وبحوث فنية وأدبية"، كما نصت على ضرورة التكامل بين المؤسسات الجامعية والمؤسسات الاقتصادية بغية تقوية مساهماتها في مجال البحث العلمي والتقني والابتكار(...)².

نود التركيز هنا إلى العلاقة القائمة بين البحث العلمي والبنية الاقتصادية في الرؤية الاستراتيجية التي نهت إلى هذه العلاقة المهمة ودعت إلى الربط بينهما؛ لأن التنمية لا يمكن أن تتحقق بدون بحث علمي، وهذا الأخير لا يمكن أن ينمو ويتطور دون دعم وإسناد من المؤسسات المانحة تمويلا وتوجيها وتحفيزا.

يحظى البحث التدخلي بقيمة اعتبارية مهمة، ليس لأنه يحقق مردودية إنتاجية وعائدا ماديا مباشرا، ولكن لأنه يهتم بمجال مجتمعي هو قاعدة وأساس كل المجالات المجتمعية الأخرى؛ ذلك أن تحقيق تعليم جيد يراعي الجودة، يحتاج الى بنية علمية وبداغوجية مؤهلة وموجهة نحو تطوير بنية البحث التدخلي بما يخدم المدرسة المغربية في مختلف أبعادها الاجتماعية والتعليمية والنفسية والبيداغوجية والديداكتيكية.

إن هذه القيمة الاعتبارية هي التي جعلت الرؤية الاستراتيجية تركز على ضرورة الزيادة في الدعم المالي وتنويعه وتوجيهه الى البحث التدخلي بالأساس حيث جاء فيها ما يلي:

- "الرفع التدريجي من نسبة الناتج الداخلي الخام المخصصة لتمويل البحث العلمي، لكي ترقى إلى نسبة 1 % على المدى القريب، و 1.5 % في 2025 ، و 2% سنة 2030 ، مع التوجه نحو تنويع مصادر تمويل البحث بمؤسسات التعليم العالي وجعله موجها بالأساس نحو البحث التدخلي؛
- الحفز الضريبي للمقاولات التي تنتج أبحاثا ذات أهمية اقتصادية واجتماعية بالنسبة للبلاد؛

¹ الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015 – 2030 ص: 42

² المرجع السابق، ص: 42

- تقوية الصندوق الوطني لدعم البحث العلمي والابتكار، يمول من الدولة ومن الخواص ومن التعاون الدولي (الميثاق الوطني للتربية والتكوين – المادة 128¹).

البحث التدخلي هو القاعدة المفتاح لبناء مدرسة ذات جودة؛ مدرسة تبني مواطن الغد وتؤسس لبنية تنموية مستدامة؛ وهذا لا يتحقق إلا بإشاعة "ثقافة البحث منذ التعليم المدرسي والاعتماد على نتائج البحث في مختلف المجالات التقنية والهندسية والاجتماعية والإنسانية والفنية والأدبية من أجل الرفع من جودة المناهج والبرامج"².

إننا على قناعة تامة ودراية متيقنة أن تثمين وتقوية الروابط العلائقية بين البحث التربوي والتنمية بشكل فعلي كفيل بأن يحقق التغذية الراجعة التي تقود عجلة التنمية والبحث العلمي عموما نحو الأفضل؛ إن هذا الترابط متأصل في الميثاق الوطني للتربية والتعليم؛ فقد دعت الدعامة الثالثة³ من المجال الأول من الميثاق⁴ على ضرورة انفتاح "مؤسسات التربية والتكوين على عالم الشغل والثقافة و الفن والرياضة والبحث العلمي والتقني"⁵.

ومن أجل ذلك نقترح جملة من المقترحات لتحقيق هذا الأمر:

- ✓ عبر عقد الشراكات والاتفاقيات بين الشركات الانتاجية والجامعات.
- ✓ الزيادة في نسبة الانفاق على البحث العلمي.
- ✓ التشجيع على براءات الاختراع وتوظيفها في التنمية.
- ✓ توظيف الكفاءات والأدمغة الوطنية بما يتناسب مع اختصاصاتها ومؤهلاتها العلمية والحد من هجرتها (المغرب يخسر ملايين الدراهم سنويا بسبب هجرة الادمغة).

المدخل الثاني: الاستثمار في المعرفة

يرتبط الاستثمار عادة بالموارد الطبيعية والبشرية وحسن استغلالها بغية الوصول الى الثروة؛ فهل تساعد المعرفة والاستثمار فيما تحقيق هذا الهدف؟

¹ المرجع السابق، ص: 43

² المرجع السابق، ص: 44

³ السعي إلى تلاؤم أكبر بين النظام التربوي والمحيط الاقتصادي.

⁴ نشر التعليم وربطه بمحيطه الاقتصادي.

⁵ الميثاق الوطني للتربية والتعليم، ص: 19

ترتبط المعرفة العلمية ارتباطا وثيقا بالمجتمع؛ إذ أنها " قائمة على تفسير المجتمع استنادا للدلائل والبيانات المادية والموضوعية ضمن إطار نظري محدد. فالدراسات النظرية التي تعالج أفكارا وآراء دون دعمها بدلائل وبيانات لا تعتبر علمية، إذ أنها تفتقر للتفسير والتحليل العلمي"¹.

إن الاستثمار في المعرفة يعني الاستثمار في وسيلة من وسائل تحقيق الثروة، غير أن المعرفة العلمية المفضية الى تحقيق هذه الغاية تتطلب شروطا وضوابط أهمها:

الوصف التشخيصي:

إنه من الوظائف الأساسية التي تحقق المعرفة العلمية، من خلال توصيف الظاهرة وتشخيص المجتمع المراد دراسته، وهو يشكل الخطوة الأولى في عملية البحث وربما الأهم في البحث العلمي، ومما لا شك فيه أن الاستثمار في مجال أو مجتمع دون دراسة عميقة تنبني على تشخيص مسبق قد تكون نتائجه عكسية ومخيبة للأمل.

التنقيب والبحث عن المعلومة:

تشكل المعلومة قاعدة أساسية ومادة متينة لبلوغ الحقيقة وجمع البيانات والمعطيات؛ ذلك أنها تشكل فارقا مهما في صناعة القرار بشتى أشكاله الاقتصادي والتربوي والسياسي والثقافي...الخ.

التفسير والتنبؤ:

يشكل التفسير الخطوة الثالثة للبحث العلمي بعد التشخيص والتنقيب، حيث يسعى الباحث الى تفسير الظاهرة وفق ما توفر له من معطيات، تفسيراً لا يقف عند واقعها وماضي الذاكرة، وإنما يستقرئ تلك المعطيات لمراقبة تطورها في المستقبل.

التخطيط والأرشفة:

التخطيط هو عملية تروم تحقيق هدف معين خلال فترة زمنية وفق وسائل معينة، حيث ضرورة ضبط المادة العلمية موضوعيا ومنهجيا وزمنيا، كما تمكن الأرشفة العلمية الباحث من الاطلاع على مختلف البحوث والمواضيع وما جد فيها.

¹ ربما ماجد، (2016) منهجية البحث العلمي إجابات عملية لأسئلة جوهرية، مؤسسة فريدريش ايبرت، بيروت، ص: 15

الدقة والموضوعية:

إن توفير بنك معلوماتي بحثي والاطلاع عليه كفيل بمساعدة الباحث على الدقة في اختيار موضوعه ومنهجية بحثه، ذلك أن الدقة في اختيار الموضوع ومنهجه هي أساسيات العمل البحثي الرصين، باعتبار الموضوع اللبنة الأساس في كل عمل بحثي جاد.

الموضوعية هي تخلص الباحث من الذاتية، أي أن يعالج الموضوع والمعطيات كما هي في الواقع. إن الموضوعية لا تعني التخلص من شخصية الباحث، وإنما عدم اقحام آرائه في معطيات لا دليل لها.

النسبية العلمية:

تتميز المعرفة العلمية بنسبيتها وقابليتها للتغيير باستمرار، فما هو حقيقة الآن قد يصير غير ذلك في وقت آخر، لذلك فإن المعرفة العلمية التي ننشد لا تسقط في التعميم والمطلق وأحكام القيمة.

تتميز المعرفة العلمية بالإضافة إلى الخصائص أعلاه بمميزات نوعية تبني البحث العلمي على أسس متينة؛ مثل التراكمية، فالمعرفة تراكمية؛ ومعنى هذا أن البحث العلمي لا يبدأ من العدم، وإنما ينطلق من حصيلة غيرنا في مجال من المجالات، هذه التراكمية تمكنه من اختيار موضوع مناسب نتيجة اطلاعه الواسع على مختلف المقروءات في المجال¹.

إن معرفة قائمة على هذه الخصائص والمميزات كفيلة بأن تكون منتجة، والإنتاج المعرفي لا ينحصر في مجال دون غيره، بل المعرفة متكاملة ومتداخلة ومتراصة، ترابط أعضاء الجسد في ما بينهم. "إن تطور المعرفة العلمية لم يكن ليحصل لولا تضافر عدة عوامل اجتماعية ومجتمعية؛ فالازدهار العمراني والمديني الذي عرفته أوروبا انطلاقاً من نهاية القرن الحادي عشر، كان له الأثر البارز في تقدم الفكر والإنتاج العلمي، ذلك أن ازدهار التجارة واتساع المدن (...) وبناء الجامعات سهل إلى جانب اختراع المطبعة وانتشار الترجمة، رواج الأفكار العلمية وتبادل المعلومات بين العلماء"².

تهدف المعرفة التي من مهامها معالجة المعلومات وأخذ القرار والتنظيم والضبط إلى وضع قاعدة أساسية للعملية العقلية والتفكير في كيفية اشتغال النشاط الانساني فكرياً وذهنياً، حتى غدت تغذي مجموعة من

¹ المرجع السابق، ص: 15 وما بعدها

² محمد سرو (2021)، العملية المعرفية مقاربات وإشكالات، منشورات باب الحكمة، تطوان، ص: 93

العلوم الإنسانية واللغوية كاللسانيات وعلم النفس والذكاء الاصطناعي... الخ. وقدمت نماذج توضيحية فيما يخص إنتاج اللغة، والإدراك البصري، واكتساب المعارف وحل المشاكل وقواعد إنتاج الأفكار¹.

الاستثمار في المعرفة أقصد به الاستثمار في العلوم الإنسانية واللغوية والدينية باعتبارها القاعدة الأساسية لبناء النظريات العلمية، فالمعرفة الإنسانية هي الوعاء الأمثل لصناعة أي نهضة فكرية واقتصادية وتنموية. ذلك أن الرؤية الاقتصادية الجامعة لا تقف عند ترشيد الموارد الطبيعية وتأهيل الموارد البشرية، بل تستثمر في اقتصاد المعرفة، الذي يركز على الابتكار وريادة الأعمال، والتميز في التعليم، وتقديم خدمات عامة بكفاءة تركز على جودة التعليم والابتكار والأصالة.

المدخل الثالث: تعزيز الحكامة المالية والإدارية للبحث العلمي:

نقصد به إدارة وتدير المؤسسات التعليمية والجامعية والبحثية برؤية واضحة تستشرف المستقبل وتنحو نحو التقدم والازدهار وذلك عبر مجموعة من الإجراءات منها:

- دمج المؤسسات الجامعية والبحثية في إطار واحد.
- تعزيز الشفافية والحكامة العلمية.
- إحداث جهاز سلطة لتنسيق السياسات والبرامج القطاعية في مجال البحث العلمي والابتكار وتنمية التكنولوجيا.
- وضع سياسة واضحة ومعلنة في مجال البحث بهدف توضيح الرؤية على المديين المتوسط والبعيد.
- تبسيط المسطرة المالية المتعلقة بالبحث العلمي وتسريعها.
- تقديم التشجيعات لفائدة المقاولات من أجل البحث والتنمية والابتكار.
- ضرورة التقييم المستمر والمتكرر لمنظومة البحث²

¹ المرجع السابق، ص: 43

² تقرير المجلس الأعلى للتربية والتعليم حول اختلالات التعليم 2015، مع تصرف بسيط متمثل في: التقرير قدمها كانتقادات ونقائص يفتقدها البحث العلمي، بينما قدمتها كاقتراعات.

خاتمة

حاولنا في هذه الدراسة بسط تصور إجرائي وعملي لتطوير البحث التدخلي، الذي اعتبرناه قاطرة التنمية لارتباطه بجوهر المجتمع وقلبه النابض، الذي إن تقدم وتطور يتطور المجتمع بكامله.

لقد توصلنا إلى أن البحث العلمي عموما والبحث التدخلي خصوصا يمكن أن يقدم إجابات عملية لمشاكل المنظومة التعليمية، من خلال التركيز على ما أسميناه "منطلقات أساسية" حيث نهينا فيها إلى ضرورة الإبداع وإنتاج المعرفة والثقة في الكفاءات الوطنية، والتركيز على حاجياتنا المحلية، حتى تصبح بحوثنا وظيفية وذات مردودية وفعالية.

إن التركيز على المحلية في البحوث العلمية بشتى أنواعها لا يقتصر فقط على الوطن؛ بل يتعداه إلى ما نسميه "بالمحلية الجهوية"، ذلك أن مشاكل المنظومة التعليمية ليست متواترة بين الجهات، وحتى إن تواترت فإن خطورتها تختلف من جهة إلى أخرى.

إن المداخل التي اقترحناها للإصلاح هي مداخل عملية وقابلة للتنفيذ ومنسجمة مع المراجع التي تستند عليها الوزارة في كل إصلاح؛ فربط البحث العلمي بالتنمية، مثلا هو من الدعامات التي دعت إليها الرؤية الاستراتيجية والميثاق الوطني للتربية والتكوين.

المراجع

- كمال دشلي (2016-1437)، منهجية البحث العلمي، منشورات جامعة حماة كلية الاقتصاد،
- ريما ماجد، (2016) منهجية البحث العلمي إجابات عملية لأسئلة جوهرية، مؤسسة فريدريش ايبرت، بيروت،
- حسين هيتي (2015)، العلاقات وشبكات التواصل الاجتماعي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان،
- عبد الرحمن يحيوي، تنمية اللغة ولغة التنمية في الوطن العربي، المركز العربي للأبحاث وتحليل السياسات، الدوحة
- محمد سرو (2021)، العملية المعرفية مقاربات وإشكالات، منشورات باب الحكمة، تطوان،
- أثر اللغة والجمال في التنمية أعمال المؤتمر الدولي الثقافة والتنمية 30 دجنبر 2019 بالقنيطرة، تنسيق، عبدالله شكرية، فاطمة أخدجو، هشام بن حميدان، منشورات مركز ابن النفيس للدراسات والأبحاث، القنيطرة
- أساسيات البحث العلمي (2017)، تنسيق ومراجعة فهد محمد وآخرون، مؤسسة علماء مصر،
- تقرير المجلس الأعلى للتربية والتعليم 2015،
- الرؤية الاستراتيجية للإصلاح 2015 – 2030
- الميثاق الوطني للتربية والتكوين